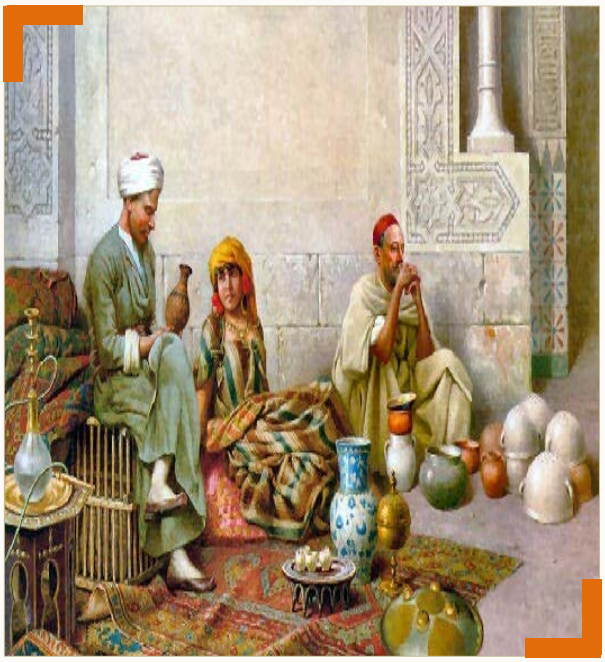

إنتاج وتدبير الأقوات في مغرب القرن الثامن عشر (١٧٢٧ – ١٧٥٧م)

أ. د. محمد حالي

إطار في الإدارة التربوية
أكاديمية الجهة الشرقية
وجدة – المملكة المغربية

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

محمد حالي، إنتاج وتدبير الأقوات في مغرب القرن الثامن عشر (١٧٢٧ – ١٧٥٧م).- دورية كان التاريخية.- العدد السابع عشر؛ سبتمبر ٢٠١٢. ص ٦٧ – ٧١.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

خمسة أعوام من الدراسات التاريخية ٢٠٠٨ – ٢٠١٢

ملخص

رغم أهمية الاقتصاد الرعي- زراعي في مغرب القرن الثامن عشر الميلادي/ الثاني عشر الهجري، فإن الظروف الطبيعية والبشرية والتقنية لم تكن تقدم شروطًا مناسبة لإنتاج فلاحي وفير. لذلك كان المجتمع المغربي يعاني قلة في مجال الأقوات، تزايدت حدتها إبان أزمة الثلاثين سنة (١٧٢٧ - ١٧٥٧م) التي أعقبت وفاة السلطان المولى إسماعيل، نتيجة لعدم الاستقرار الذي طبع هذه الفترة. ومن هنا كان الإنسان المغربي يجد نفسه على حافة أزمة شبه دورية في مجال الأقوات، كانت تسهل عمل الكوارث الديموغرافية المختلفة من مساغب وأوبئة. برغم الجهود المستمرة التي بذلها هذا الإنسان في إرساء منظومة من الضوابط والمقاييس، الرامية إلى حسن تدبير ما يتحصل بيده من أقوات في سنوات الوفرة، وادخارها لمواجهة سني القحط والقلة وتخفيف آثارها على البلاد والعباد.

مقدمة

تعتبر التقلبات المناخية من أبرز العوامل التي تحكمت في عملية إنتاج الأقوات في تاريخ المغرب عامة، وفي القرن ١٨ بصفة خاصة، إذ كانت سنوات القحط تؤدي إلى نفاذ مدخرات الأقوات، وإلى انتشار الجوع وتفشي الأمراض ثم موت الماشية والسكان على السواء. كما كانت عوامل أخرى تؤثر سلبا في الإنتاج الفلاحي، ويتعلق الأمر بالتقنيات الفلاحية المتأخرة وبأساليب الاستغلال الفلاحي المرتبطة بأنماط العيش التي غلبت عليها حياة الترحال في مناطق ذات إمكانات فلاحية هامة. كما لعبت الظروف الأمنية المتردية دورا حاسما في الأزمة التي عرفها المغرب بعد وفاة السلطان مولاي إسماعيل في المجال الزراعي، نتيجة الحروب والاضطرابات التي تسببت في عدم الاستقرار وأحدثت حركية كبيرة في الخريطة البشرية للبوادي المغربية آنذاك.

ونظرًا لخطورة الآثار المدمرة للكوارث الديموغرافية الناجمة عن نقص المنتجات الفلاحية، والمرتبطة بالمجاعات والأوبئة والحروب، والتي كانت تحدث ثغرات في التاريخ الديموغرافي للبلاد، فإن الإنسان المغربي كان حريصًا على حسن تدبير الأقوات من خلال ادخارها في أوقات الوفرة للسنوات العجاف، كما كان حذرا إزاء تصدير الأقوات، وعمل على تكييف نظامه الغذائي مع إمكانيات الإنتاج المتاحة.

أولاً: العوامل المتحكمة في إنتاج الأقوات

١/١- التقلبات المناخية:

ترك شبح الجدب بصماته في العادات اليومية والممارسات المرتبطة بالأشغال الفلاحية، ومن ذلك ما كان شائعًا في عدة مناطق مغربية من تجارب لاستخبار السنة الفلاحية[1] قبل الإقدام على عمليات الحرث والبذر. ويعزى ذلك إلى عدم انتظام الظروف المناخية مما كان يؤدي إلى غياب الثقة في المستقبل وبعبارة B.Rosenberger فإن "المستقبل لم يكن مضمونا أبدًا حتى بالنسبة للذين هم أكثر ادخارًا".[2] وخلال القرن الثامن عشر شهد المغرب

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

عدة قحوط كان أطولها وأكثرها وقعًا على الإنتاج الفلاحي قحوط (١٧٢١ - ١٧٢٤)، (١٧٣٧ - ١٧٣٨)، (١٧٧٦ - ١٧٨٢). وكانت مثل هذه الكوارث تحتم على الإنسان المغربي اللجوء إلى التفكير في أساليب الادخار وحسن تدبير ما تجود به سنوات الوفرة من أقوات.

٢/١- المستوى التقني:

شكلت بساطة أدوات وتقنيات الإنتاج الفلاحي إحدى المعوقات التي حالت دون تكثيف استغلال المجال الزراعي أو توسيعه، إذ ظلت عملية الحرث تتم بمحراث خشبي بسيط يجره زوج من البهائم أو حيوان واحد فقط، ولا تستغل كل قوة الحيوان في الجر لسوء عملية القرن.[٣] وحسب E. Laoust، فقد حافظ الأمازيغي على بساطة هذا المحراث القديم، بدون أي تحسين يذكر، عكس ما أدخل عليه من تعديلات في أوربا منذ نهاية العصور الوسطى،[٤] مما كان يؤدي إلى جانب عوامل أخرى، إلى ترك مساحات بدون حرث، وإلى ضيق المجال الفلاحي باستمرار بزحف النباتات والمستنقعات على حساب الأراضي الزراعية،[٥] وإلى ضعف المردودية التي لا توفر كل ما يلزم للاستهلاك وأداء الأعشار والادخار والاستثمار في تطوير القطاع.

ومن هنا طرحت ضرورة الاعتماد على السواعد البشرية الكثيرة لتعويض هذا التأخر التقني، ففي هذه الظروف، فإن الوسيلة الوحيدة بالنسبة للمجتمع حتى ينتج ويستجيب لحاجاته، هي تكثير النسل. فامتداد العائلة يضمن الأمن الاقتصادي والحماية للفرد عن طريق قوتها العددية.[٦] ويعتبر هذا التأخر التقني ونقص السواعد البشرية عاملين بارزين في تفسير علاقات التضامن على مستوى الأشغال الزراعية والتي تعتبر عملية "التويزة" أهم مظهر لها.

٣/١- أنماط العيش وطرق الاستغلال:

عمومًا فإن جبال الريف والأطلس الكبير والأطلس الصغير والواحات هي مجالات المستقرين، ومثلت فيها زراعة المدرجات تتويجًا للعمل الدؤوب للإنسان على حساب الطبيعة. ويستتبع هذا النمط في العيش القائم على الاستقرار واستغلال أرض زراعية دائمة سكنًا متجمعًا ومتراصًا. أما بخصوص السهول، فقد لاحظ F.Braudel أنها تعاني من مشكل سوء التصريف، وإذا أهملت قنوات الصرف أو قلت الساكنة تزحف الغابات على السهول وتتراجع هذه الأخيرة بسرعة إلى حالة المستنقعات البدائية.[٧] ففي (١٧٢٧ – ١٧٢٨) ذكر الرحالة J. Braithwaite أن الأعراب الذين كانوا في شمال فاس كانوا يقطنون الخيام وكان زعيمهم يتوفر على قطيع مهم من الماشية والجمال، الشيء الذي كان يمثل أكبر قسط من موارد عيشهم.[٨]

وكانت الهوامش العليا لسهول الشمال الغربي القريبة من الأطلس المتوسط مجالات لنزول الرعاة بقطعانهم بحثًا عن مراعي دافئة في الأزغار (منطقة قدم الجبل في الأطلس المتوسط) والسهول المجاورة مما كان يسبب صعوبات على مستوى العلاقات بين الرحل الوافدين على السهول وبين سكانها،[٩] ويخلق ظروفًا تتسم بعدم الاستقرار. وفي هذا الوسط غير المستقر، فإن نمط الحياة الترحالية وسيادة السكن المتنقل وخاصةً الخيمة، وحالة الحرب شبه المستمرة، كلها عوامل كانت تقلل من الأهمية الاجتماعية لامتلاك الأرض- حسب Grigori Lazarev - مما كان يفرض الاستغلال الجماعي للأرض، والانتفاع المشترك بها، بحقوقه التي يخلقها الحضور الفعلي للقبيلة في مجال محدد، وهو نمط الاستغلال الملائم لهذه البيئة ذات التعمير غير المستقر.[١٠] ومعلوم أن عاملين أساسيين كانا يحولان دون احتجان الأراضي ويمنعان تكوين الأملاك الخاصة في البوادي المغربية قبل القرن التاسع عشر وهما التلاحم القبلي القوي، وحق الولاية العليا للسلطان على الأرض.[١١]

٤/١- الكوارث الديموغرافية وتقلص المجال الزراعي:

كانت هذه الكوارث المرتبطة بالمجاعة والأوبئة والحروب، تحدث ثغرات في التاريخ الديموغرافي للبلاد. ويبدو أن فلاحة القرن الثامن عشر، كانت مشلولة بفعل موجات الجفاف المتعاقبة، وما كان يترتب عنها من مجاعات وأوبئة، أكثر مما كانت متأثرة بالحروب الأهلية، وكانت تلك الموجات تمنع كل تراكم أو تطور مهم للحياة الفلاحية.[١٢]

وخلال النصف الأول من القرن الثامن عشر، شهد المغرب بالإضافة إلى المجاعات المذكورة آنفًا، مجموعة من الطواعين أهمها طاعون (١٧٤٢ - ١٧٤٤) و (١٧٤٧ - ١٧٥١)، هذا بالإضافة إلى حروب وفتن أزمة الثلاثين سنة (١٧٢٧ - ١٧٥٧). ويرى أحد الباحثين أن هذه الكوارث كانت بمثابة "شخصية تاريخية" أثرت بعمق في أحداث تاريخ المغرب،[١٣] إذ كان ينجم عنها مد وجزر مفاجئ في المجال الديموغرافي، وكانت تعيد بناء التوازنات بين السكان والمجال وبينهم وبين الثروات والأقوات، وتلك إحدى السمات الأساسية لديموغرافية المغرب التقليدية. ويرجح أن هذه الكوارث كانت تضرب السهول والحواضر بعمق، لكونها مجالات خصبة لتنشيط حركية العدوى إبان الطواعين، إضافة إلى كون السهول مسرحًا للحروب.

ومن أولى المؤشرات الرقمية التي تمدنا بها المصادر حول ضحايا المساغب التي ضربت المغرب في النصف الأول من القرن الثامن عشر ما ورد في مخطوط "الروضة السليمانية" حول مجاعة ١١٥٠هـ/١٧٣٨م وضحاياها بفاس: "(...) ولقد مات من الجوع عدد لا يحصى، وأخبر صاحب المارستان أنه كفن في رجب ورمضان ثمانين ألفًا، وكذا من غيره ممن كفنه أهله".[١٤] وحسب وثيقة بريطانية نشرتها Magali Morsy، فإن مجاعة ١١٥٣هـ/١٧٤١م قضت على ثلث مجموع سكان البلاد وعلى $\frac{9}{10}$ فرسان العبيد(جيش العبيد).[١٥] مثل هذه الخسائر البشرية، كان من شأنها أن تودي بحياة الفلاحين وسكان البوادي، ومن هنا مصدر ظاهرة الأراضي الزراعية المهجورة التي تحدث عنها الرحالة الأوربيون الذين زاروا المغرب خلال القرن الثامن عشر، والتي دفعت J.Célérier و J.Le coz إلى التأكيد على غياب معالم الحقل بالمعنى الأوربي في

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

البوادي المغربية قبل الحماية، فتبدو المجالات المستغلة على شكل خلايا أو منفرجات ذات حدود غامضة، غارقة وسط الأراضي الموات والمستنقعات والغابات، مع بدايات حرث غير مكتملة "لمراجع" أو "مطيرات" تدل على عياء الفلاح، أو زوج البهائم، أو انقضاء البذور، أو تقلبات المناخ.(١٦)

وكانت الفراغات السكانية التي تعقب كل أزمة ديموغرافية في السهول، تستقطب حركات زحف سكانية تعويضية من الجبال، وخصوصًا إبان فترات تقلص ظل السلطة المركزية، كما حدث خلال الفترة التي أعقبت وفاة السلطان مولاي إسماعيل. فاتحادية آيت يدراسن مثلاً قطعت مراحل كبيرة في رحلتها الطويلة في الزمان والمكان، من أقصى جنوب غرب البلاد إلى أن وصلت إلى السفوح الشمالية الغربية للأطلس المتوسط وسهل سايس في مطلع القرن التاسع عشر.(١٧)

٥/١- الجانب الأمني:

في ما بين (١٧٢٧ - ١٧٥٧)، تراجعت الدولة أمام التزاماتها الأمنية، فعمت الفوضى، وكان مبدأها التنافس بين أبناء المولى إسماعيل حول السلطة، فتدخلت أطراف أخرى في الصراع كعناصر جيش العبيد، والوداية، وقبائل الغرب، والريف، والأطلس المتوسط، وسايس. واستمرت الحروب طيلة الفترة المذكورة إلى أن تمكن المولى عبد الله من التحالف مع قبيلة كروان وإقرارها في سهل مكناس الذي تسللت إليه أثناء الأزمة، ومع معقل الأوداية وأهل فاس لموازنة جيش العبيد فيما بين (١٧٣٥ – ١٧٥٠) وإعادة الاستقرار.(١٨) وخلال هذه الأزمة العميقة أصيب اقتصاد البلاد بشكل يكاد يكون شاملاً نتيجة تراجع التجارة الصحراوية، وتعطل المبادلات الداخلية لانتشار الفوضى والاضطرابات، وامتناع الرعية من تأدية المستحقات لجانب بيت المال، وتتابع موجات الجفاف وانتشار الأوبئة والمجاعات واستمرار الحروب.

وقد استغلت قبائل الجبال هذه الظرفية المضطربة لتواصل زحفها نحو السهول الشمالية الغربية - بعد ما حاصرها مولاي إسماعيل بسلسلة من القلاع أثناء فترة حكمه الطويلة - مما أدى إلى اضطراب التعمير في منطقة حساسة، تعتمد عليها الدولة في تنفيذ أدوارها السياسية. وبالتالي اعتماد القبائل على إمكانياتها الذاتية، والعمل على التحالف مع هذا الطرف أو ذاك لمواجهة غارات القبائل الأخرى، أو حملات العبيد والأوداية، إلى جانب السلاطين الذين كانوا ينصبونهم. وكان من الطبيعي أن تؤدي هذه الاضطرابات إلى انعكاسات سلبية على المحاصيل الزراعية على مستوى الإنتاج والادخار. ففي ١٩ يناير ١٧٢٨، عندما مرت البعثة الإنجليزية - التي كان J.Braithwaite برفقتها - شمال غرب سيدي قاسم كتب قائلاً: "مررنا بمنطقة رائعة حيث تكثر مزارع الذرة التي حصدت من قبل، غير أن السكان كانوا قد هربوا من المنطقة خوفًا من هجوم الجبليين الذين يترددون عليها من أجل النهب، وذلك منذ وفاة مولاي إسماعيل".(١٩)

وإلى جانب غارات القبائل على بعضها البعض، فإن المحاصيل الزراعية والحياة الفلاحية والعمرانية عامة تأثرت سلبًا بحملات الجيوش التابعة للأطراف المتناحرة حول السلطة، والتي عملت على أكل الزروع وإفراغ مخازن المغلوبين وتركهم عرضة للجوع. وقد استهدفت هذه الأعمال سكان البوادي والمدن على السواء. فالحصار الذي ضربه أحمد الذهبي على فاس في نوفمبر ١٧٢٧ لم يكن ليخلف ضحايا داخل محيط الأسوار لكنه: "نهب المنطقة (الخلفية للمدنية) بدرجة لم تترك لسكان الضواحي إمكانية لتزويد المدينة (بالمؤمن)، ثم تخريب مزارع الكروم وبساتين سكان المدينة الموجودة خارج الأسوار (...)".(٢٠)

ويخبرنا صاحب "التقاط الدرر" أنه في سنة ١١٥٠هـ /١٧٣٨م، الذي كان عام مجاعة، خرج محمد بن عربية لقتال البربر، أنصار المولى عبد الله، فأتت جيوشه على الحقول التي مرت بها، وكان زرعها يقترب من النضج، وعن ذلك كتب القادري قائلاً: "ومات في هذا العام ١١٥٠هـ خلائق كثيرون من قلة الطعام. وفي منتصف صفر خرج عبيد الرملة بعَددهم وعُددهم وقصدوا قتال مولاي عبد الله ومن معه من البربر. وكان الزرع مفركًا [قريبًا من النضج] فتركوا كل ما وجدوا منه قاعًا صفصفا [...]".(٢١) وجاء في مخطوط "الروضة السليمانية" أن المولى عبد الله عندما بويع في دولته الخامسة ١١٥٧هـ ، نزل على حلل دكالة، لكون منافسه المولى المستضيء كان بينهم، وقامت جيوش المولى عبد الله بنهب أمراسهم: "ونزلت عساكره أمامه ببسيط دكالة وفر أهلها مع المستضيء لناحية الحوز، واشتغلت العساكر تنهب الزرع من الأمراس [المخازن الجماعية]، وتستخرج الدفائن والبهائم وتخرب القرى وتقطع الأشجار، والعساكر تنقلب في بسيط دكالة كلما فرغت من ناحية زادت لأخرى، والسلطان عبد الله مقيم بقصبة أبي لعوان سنة كاملة، إلى أن فرغت العساكر من أمر دكالة ولم يبق بها ما يأكله الطير ويتظلل به".(٢٢)

نستخلص من هذه الإشارات، أن الحروب التي شهدها المغرب في ما بين (١٧٢٧ - ١٧٥٧) ساهمت بشكل واضح في أزمة الأقوات التي كانت مطروحة آنذاك، مما يجعلنا نتصور أن الأطراف المتحاربة كانت تنهج ما يمكن تسميته بسياسة الأرض المحروقة، والتي كانت تشرد المهزومين وتتركهم عرضه للجوع والموت والهجرة.

ثانيًا: تدبير الأقوات

١/٢- حظر وسق الأقوات لدار الحرب:

كانت عملية وسق الأقوات نحو أوربا تثير حساسية الرأي العام والخاص نظرا لما تخلفه من فراغ في الأهراء، ومعاناة محققة أثناء سنوات القلة التي تعقب المحاصيل الجيدة. ففي سنة ١٧٦٦ اضطر السلطان إلى استفتاء العلماء في شأن تصدير الحبوب عبر ميناء فضالة، ووافقوا على ذلك لأن الأمر كان يتعلق بشراء الذخيرة.(٢٣) وقد ذهب العلماء إلى تحريم بيع النصارى كل ما من شأنه تقويتهم على المسلمين، وتدخل الأقوات، طبعًا، في هذا الحكم. فقد أورد

دورية إلكترونية .مُحكَمة .ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الوزاني، سيدي المهدي بن محمد الحسني العمراني، في نوازله المسماة بالمعيار الجديد قوله: "[...] إذا قدم أهل الحرب إلى بلادنا جاز الشراء منهم والبيع، إلا أنهم لا يباع لهم ما يستعينون به ويرهبون به المسلمين"،[٢٤] وعن صاحب "الدر المنتخب"، أن المولى عبد الله عندما بلغه أن أخاه المستضيء - الذي لجأ إلى أصيلاً بعد تنحيته عن العرش في ١١٦١هـ/١٧٤٨م- كان يبيع الزرع للنصارى، بادر إلى مكاتبة ولده وخليفته على مراكش "سيدي محمد أن يبعث له من يخرجه من أصيلاً، فإنه أباح الزرع للنصارى."[٢٥]

وإذا كان تصدير الأقوات من شأنه - انطلاقًا من مبررات شرعية- أن يساهم في إضعاف دار الإسلام أمام دار الحرب، فإنه كان من عوامل إفراغ الأهراء والمخازن من مدخرتها وتعريض أهلها للجوع خلال سنوات المحل، وهو ما لاحظه W. Lemprière، الذي انتبه إلى أن تصدير الحبوب خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر عبر موانئ موگادور والدار البيضاء ومازغان، كان يؤدي إلى الغلاء، وإلى حدوث المجاعة.[٢٦]

٢/٢- نظام الادخار:

بالرجوع إلى المصادر، نقف على نصوص تحث على ادخار الأقوات والأعلاف كوصية عبد الله بن محمد بن أبي بكر البوشواري المتوفى بعد ١٠٧١هـ/١٦٦١م والتي ذكّر فيها بنصوص شرعية تحث على الاقتصاد وتذم الإسراف والتبذير، منها إلى أن سني المجاعة "لا يجد فيها المرء إلا ما ادخره في السنين المخصبة من أقوات وأعلاف وبذور".[27] لقد كان ادخار الأقوات رمزًا للغنى، وأحد مؤشرات التراتب الاجتماعي، ففي منطقة سوس، كان الشعير الذي تمضي عليه السنون في المطامر والأهراء مادة أساسية في غذاء أثريائها، وكانوا يلمزون من لا يأكل منه بالفقر والعوز.[٢٨]

وقد ذهب R.Montagne إلى التركيز على أعمال النهب والفوضى التي كانت تستهدف مدخرات قبائل الأطلس الصغير من الأقوات في فترات الشدة، مما جعل محاربي كل فخذ يفتعلون الأسباب لمهاجمة قرى الفخذ المجاور ونهب أقواته، وهذا الوضع كان يحتم على "إخصان" (عظام) الفخذ المستهدف الاتحاد رغم خلافاتهم لبناء "الأگدير" (المخزن الجماعي).[٢٩] ورغم أهمية أعمال R.Montagne في الوقوف على معالم مؤسسة الأگدير في الأطلس الصغير وسوس، فإن بعض خلاصاته كانت تصب في المشروع الاستعماري الفرنسي في المغرب، مما جعله يركز على أطروحة الفوضى في تفسير نشأة "المخزن" الجماعي، في الوقت الذي ينبغي ربطها بالتقلبات المناخية وما كانت تؤدي إليه من أزمات الأقوات في اقتصاد القلة والكفاف الذي ميز المجتمع المغربي قبل الحماية، وبالتضامن والتكافل والتعاون الذي يعد المخزن الجماعي للأقوات من أول مظاهره.

ويبدو أن خزن الأقوات لم يكن وقفًا على قبائل الأطلس الصغير والكبير وسوس بل كان معمولاً به لدى رحل آيت عطا وآيت حديدو وآيت مرغاد وآيت سغروشن وبني مجليد، الذين استعملوا تيغرمت المكونة من خمس أو ست غرف لخزن أقواتهم.[٣٠] وحتى في بوادي الشمال الشرقي من البلاد شكلت عملية تخزين جزء من المحصول حيزًا مهمًا في العمل الفلاحي لقبائل المنطقة.[٣١] وكانت ساكنة المدن تلجأ بدورها إلى الادخار لمواجهة الأزمات الغذائية، إذ كتب J.Braithwaite عن حصار السلطان أحمد الذهبي لفاس في نوفمبر ١٧٢٧ قائلاً: "يقال إن المدينة كانت تتوفر على ما يكفيها من المؤن وكل الضروريات لمدة أكثر من ثلاث سنوات".[٣٢] ونستفيد من نص يهودي نشره George Vajda أنه عندما احترقت نوايل اليهود وأكواخهم بقصبة الشراردة، عندما نقلهم إليها المولى اليزيد في ١٧٩١م من ملاحهم عقابًا لهم على رفضهم أداء ما وُظف عليهم، فبالإضافة إلى ما احترق من أثاثهم، ضاعت هناك جرات من العسل والسمن واللحوم الجافة المدخرة.[٣٣]

٣/٢- العادات الغذائية:

كانت العادات الغذائية جزءً من عملية تدبير الأقوات، وكانت تتماشى مع إمكانات الإنتاج المتوفرة. وكانت التغذية تقوم أساسًا على الحبوب، وتتميز ببساطتها. إذ كتب برايتوايت J.Braithwaite بهذا الخصوص قائلاً: "[...] وبما أن أكل العدد الكبير من المغاربة يعتمد على الطحين، فإنهم كانوا يخزنون كمية وافرة من ذلك، إضافة إلى الزبيب والتين المجفف اللذين يمثلان جزءً مهما من تغذيتهم [...]"،[٣٤] ومن جهته ذكر J.Berque أن التغذية عند سكساوة وسائر جيرانهم الجبليين، كان أساسها العصائد والأحسية والعجائن.[٣٥] وفي إنيولتان وعموم الأطلس، كانت الحبوب تستهلك على شكل كسكس ودشيشة وخبز، بإضافة بعض الدهون كالزيت والسمن، وكان أكل اللحم استثنائيًا، ولم يكن الخبز غذاءً أساسيًا في الأطلس، خلافًا لما كان عليه الأمر في أوربا خلال العصور الوسطى.[٣٦] بينما في بوادي الشمال الشرقي من المغرب، كان الخبز مصدر تغذية أساسي للفرد يستهلك وحده أو مع مواد أخرى كالزيت والسمن والعسل، وكان يصنع الطعام (الكسكس) من طحين القمح ويدهن بالسمن أو تضاف له الخضر مع كمية من اللحوم.[٣٧] وعمومًا فإن هذه التغذية البسيطة، غالبًا ما كانت تشكل طعام العامة وأحيانًا حتى الخاصة، وهي تعكس قلة الإنتاج وعدم تنوعه، غير أن هذا المستوى العادي على قلته وبساطته، كان يختل في فترات الشدة، كالقحوط والحروب.

خاتمة

هكذا فإن تضافر العوامل السابقة الذكر، كان يخلق ظرفية غير مناسبة لتراكم إنتاج فلاحي وفير في مغرب القرن الثامن عشر، وخصوصًا إبان أزمة الثلاثين سنة (١٧٢٧ - ١٧٥٧) التي تفاقمت فيها أزمة الأقوات، مما خلق بيئة مناسبة لعمل الكوارث الديموغرافية المختلفة وخاصةً المجاعات والأوبئة، التي يبدو أنها كانت أكثر تأثيرًا في ديموغرافية البلاد من الحروب والفتن المشار إليها. كان الإنسان المغربي قد استفاد من دروس الدهر، لذلك عمل على تكييف أشغاله الزراعية وعاداته الغذائية، وكان حذرًا إزاء عملية وسق المحاصيل الزراعية نحو أوربا أثناء سنوات الوفرة، إلا

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

عندما تحتم مصلحة البلاد ذلك، كما حرص كل الحرص على ادخار الأقوات لمواجهة فترات ندرتها، غير أن هذه الإجراءات لم تكن كفيلة بتجنيب البلاد والعباد الآثار المدمرة للكوارث الديموغرافية.

الهوامش:

(*) أصل هذه الدراسة مساهمة شاركت بها في ندوة نظمتها وحدة التكوين والبحث في الديموغرافيا التاريخية بكلية الآداب - جامعة محمد الأول – (وجدة) المملكة المغربية، يوم ٩ يناير ٢٠٠٢ في موضوع "الديموغرافيا التاريخية في المغرب: قضايا وظواهر".

(١) أنظر على سبيل المثال: السوسي، محمد المختار، **المعسول**، ج ١٧، الدار البيضاء ١٩٦١، ص ٦٠.

(2) Ben Ali (Driss), **Le Maroc Précapitaliste**; Casablanca 1983. P. 24.

(٣) الموادن، نور الدين، **التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للبوادي المغربية خلال القرن التاسع عشر: منطقة الشمال الشرقي نموذجًا**، أطروحة دكتوراه الدولة، كلية الآداب بوجدة، ١٩٩٨ - ١٩٩٩ (غير منشورة) ص٢٠٦، ٢١٣، ٢١٢.

(4) E.Laoust, **Au sujet de la charrue berbère** ;Hespéris, T.X. Fasc. 1, 1930. P. 47.

(5) J.Célérier, «**les merjas » de la plaine du sebou ;Hespéris**, T.II, 1922. 1er, 2ème trimestres, p111.

(٦) اهتم العديد من الباحثين بالعلاقة بين بساطة التقنيات والأهمية العددية في توازن العائلة: انظر على سبيل المثال:

-Ben Ali Driss ; op ;cit : p.36 et suivantes.

التوفيق أحمد، **المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر**. إينولتان (١٨٥٠-١٩١٢) ط.٢. الدار البيضاء ١٩٨٣، ص ١٨٩، ١١٤، ١١٢. الموادن، نور الدين، "**العائلة والتاريخ الديموغرافي للمغرب**"، مجلة كلية الآداب بوجدة. ع ٦، ١٩٩٦. ص ٤٧ - ٥٨.

(7) Fernand Braudel; **la Méditerranée et le monde méditerranéen à l'epoque de Philippe II**; 4ème éd. Librairie Armand Colin, T1, Paris ; 1979, pp 56 - 58.

(٨) مينة مادني، **تاريخ الثورات في إمبراطورية المغرب بعد وفاة السلطان الراحل مولاي إسماعيل لمؤلفة جون بريثويت** J.Braithwaite (ترجمة ودراسة)، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، كلية الآداب بالرباط (١٩٩٩-٢٠٠٠) (غير منشورة) ص ١٥١.

(9) J.Célérier, «**la transhumance dans le mayen-Atlas** » Hespéris, T. VII; 1927; 1er trimestre, p62.

(10) Grigori Lazarev, « **les concessions foncières au Maroc: Contribution à l'étude de la formation des domaines personnels dans les compagnes Marocaines** » in B.E.S.M, 1978, p45.

(11) Ibid, P. 43.

(12) J. Brignon et Autres, **Histoire du Maroc**, Hatier Paris, 1967, P. 271.

(١٣) الموادن، نور الدين، **التاريخ الاجتماعي**، م .س، ص ١٥٦.

(١٤) الزياني، أبو القاسم، **الروضة السليمانية**، مخطوط، خ. ع، الرباط، رقم ١٢٧٥، ورقة ٨٣ ب.

(١٥) الحيمر محمد، **جيش العبيد والدولة المغربية منذ التأسيس إلى ١٧٥٧**، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، كلية الآداب بالرباط، (غير منشورة) ص ٢٠٥.

(16) Ben Ali Driss; op .cit , P. 49.

(١٧) أكنينح العربي، **آثار التدخل الأجنبي في المغرب على علاقات المخزن بقبيلة بني مطير (١٨٧٣-١٩١٢)**، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، كلية الآداب بالرباط، (١٩٨٣ - ١٩٨٤)، (غير منشورة) ص ٣٤.

(18) J.Brignon et Autres, op. cit. p.257.

(١٩) مينة مادني، م. س، ص ٢٥١.

(٢٠) رواية J.Braithwaite ، أوردتها مينة مادني، م. س، ص ١٦٤.

(٢١) **القادري**، محمد بن الطيب، **التقاط الدرر**، تحقيق هاشم العلوي القاسمي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٨٣، ص ٣٧٧.

(٢٢) الزياني، أبو القاسم، **الروضة السليمانية**، مخطوط. خ.ع، الرباط، رقم د ١٢٧٥، ورقة ٩٥ أ.

(23) J.Brignon et Autres, op. cit. P. 271.

(٢٤) الوزاني، سيدي المهدي بن محمد الحسني العمراني، **الجامع من النوازل الجديدة الكبرى فيما لأهل فاس وغيرهم من البدو والقرى المسماة بالمعيار الجديد الجامع المعرب عن فتاوي المتأخرين من علماء المغرب**، طبعة حجرية، خزانة القوين، فاس، تحت رقم ١٤٧١٠، ج٣، النازلة ٣٥.

(٢٥) ابن **الحاج**، أحمد بن حمدون، **الدار المنتخب**، مخطوط، خ.ح، رقم ١٢١٨٤، ج ٩ ص ١١٦.

(26) Farouk, Ahmed; «**Critique du livre de Lempriére par un témoin de l'époque**», Hespéris, vol, XXVII. Fasc unique,1988 - 1989, P. 131.

(٢٧) **البوشواري** عبد الله بن محمد بن أبي بكر، (ت. بعد ١٠٧١هـ)، "**وصية في شأن ادخار الأقوات والأعلاف**"، أوردها المختار السوسي، المعسول ج ١٧، الدار البيضاء، ١٩٦١، ص ٢٥٦ - ٢٥٨.

(٢٨) السوسي محمد المختار، المعسول، الدار البيضاء، الرباط، ١٩٦١، ج، ١٣، ص ١٥٣.

(29) Robert Montagne, «**un magasin collectif de l'Anti-Atlas: l'Agadir des Ikounka**» Hespéris, T.IX, 2eme. 3eme trimestres, 1929, P. 162 - 164.

(30) Ibid, P. 200.

(٣١) الموادن، نور الدين، **التاريخ الاجتماعي**، م. س. ص ٢٢٢.

(٣٢) مينة **مادني**، م. س، ص ١٦٤.

(33) Georges Vajda; **Un recueil de textes historiques judeo-marocains. I.H.E.M**; Collection Hespéris; N° XII, Paris,1951, P. 88.

(٣٤) مينة مادني، م. س، ص ١٦٤.

(35) Jacques Breque, **Structure sociales du Haut-Atlas, Collection Sociologie d'aujourd'hui**, P.U.F. Paris, 2e éd. 1978. P. 101.

(٣٦) التوفيق **أحمد**، م. س، ص ٣٣١ - ٣٣٢.

(٣٧) الموادن **نور الدين**، **التاريخ الاجتماعي**، م. س، ص ٣١٢.